

الوزير والاستاذ

بقلم غسان سلامة

تتحسس مادلين اولبرايت مياه الشرق الاوسط، وتألف عن الفطس في البركة. وبعد طول تأمل ما هي تلقي بنفسها اخيراً في خضم قضية، اختارت ان تكون رابع او خامس اولوياتها، ولم تعطاها حتى اليوم وقتاً يذكر ولا اهتماماً ذا معنى. بل انها، على عكس سلفها، كريستوفر، بدت كأنها ترتاح لتسلم غيرها في الادارة مهمة متابعة مسيرة التسوية بين العرب واسرائيل، بينما هي تتنقل بين موسكو وطوكيو، وباريس ومدريد. بل انها، في عمق تفكيرها، تشارك الصحافة الاميركية انتقادها كريستوفر لانه "سافر الى الشرق الاوسط عشرين مرة، ولم يزر بكين الا مرة واحدة، ومكسيكو مرتين". تشعر اولبرايت، التي علمت العلاقات الدولية سنوات في الجامعة بعد تتلمذها على يد زبغنيو برجنسكي، انها تتفوق على سلفها في امرين: الاول انها تحسن اختيار الاولويات، فلا تفرق في التفاصيل ولا تتسلم ملفات ميؤوس من امرها او تستحوذ على الوقت المضي. والثاني انها تجرؤ على الكلام الكبير بحق اصدقاء واشنطن كما بحق اخصامها، مما كان سلفها، الدمث الخلق، والمحامي الجنتلمان، يأنفه.

وان كانت هذه بالذات صورة الوزيرة اولبرايت عن نفسها، فما الذي دهاها لزيارة منطقتنا الفارقة في الملفات المستعصية؟ فهي تعرف كيف تتوعد عراق صدام حسين، وكيف تضغط على يلتسين ووزيره بريماكوف وكيف تخاطب الزعماء الصينيين بصلف. هناك المعطيات الجيوبوليتيكية واضحة، والكلام الكبير ممكن. فما لها وللشرق الاوسط حيث قد يحدثها الرئيس الاسد ساعات عن تاريخ القضية، وحيث سيمنعها تنبهاه من مخاطبته بعنف لان له في الكونغرس الاميركي من يستطيع لومها بعد عودتها الى واشنطن وربما اسكاتهما، وحيث ستخرج وهي

- التتمة في الصفحة ١٦ -

الوزير والاستاذ

- تتمة المنشور في الصفحة ١ -

تمارس ضغطها المتوقع على ياسر عرفات لاعتقال اعضاء "حماس" و"الجهاد" لانها تعلم ان لا بديل حالياً من السلطة الفلسطينية، وان قوة تلك السلطة، كما كان بيار الجميل يقول عن لبنان، هي بالذات، في ضعفها. وستجد اولبرايت ايضاً في البحث عن المفردات المناسبة للتحدث مع حلفاء واشنطن، امسوا بيسامون انحيازها الصارخ لاسرائيل في كل من مصر والاردن والسعودية.

لماذا جاءت اولبرايت؟ لماذا الآن؟ لانقاذ امن اسرائيل بعد العمليات الفدائية في فلسطين وبعد فشل عملياتها العسكرية المزري في جنوبنا؟ لانقاذ عملية التسوية بين اسرائيل وفلسطين بعد تعثرها الواضح؟ لدفع عملية التفاوض بين سوريا واسرائيل، ولو شكلياً، لاستحالة التوصل الى نتائج ملموسة على هذا الملف ما دام "اليكود" في السلطة؟ لتمهيد الوضع في جنوب لبنان بعدما شهد في الاسابيع الاخيرة اسوأ تدمير في اوضاعه منذ عملية "عناقيد الغضب" السيئة الذكر؟ ام انها جاءت لانقاذ قمة الدوحة الاقتصادية المهددة بالالغاء منذ قررت السعودية مقاطعتها، او لتمتين الموقف الاقليمي ضد ايران منذ شوش انتخاب محمد خاتمي رئيساً صورتها كدولة "ترعى الارهاب وتهمد الجيران"، او لتحسين موقف تحالف ١٩٩١ ضد عراق صدام بعدما فتحت اكثر من كوة في الجدار المضروب حول هذا البلد التعتيس الحظ؟

تزور اولبرايت المنطقة لا لهدف من هذه التي ذكرنا. انما لكلها مآلاً، كما يدل على ذلك بوضوح اختيار المحطات وانتخاب المحاورين. غير ان سبباً اعمق من كل التي ذكرنا هو الدافع الاول للزيارة، سبباً لا علاقة له بالشرق الاوسط بقدر ما انه نابع من صورة الادارة الحالية داخل اميركا نفسها. فالخيط الرفيع الذي يربط كل اهداف الجولة معا اسمه: المصلحة القومية الاميركية. وهذه المصلحة باتت مهددة، وهي مهددة في الشرق الاوسط بالذات. فاذا اجلت قمة الدوحة او الفيت، فهذا مس واضح بوجه القدرة الاميركية التي تقف بحزم وراء دولة قطر الصغيرة تدفعها نحو استضافة اللقاء. واذنا توقفت مسيرة التسوية بين العرب واسرائيل، فهذا نقض صارخ لانجازات الدبلوماسية الاميركية من مدريد الى اوسلو وحتى حديقة البيت الابيض. واذنا تحولت علاقات ايران بجيرانها نحو التحسن فانها تضعف يد واشنطن في مفاوضاتها المحتملة مع طهران. واذنا تعددت الكوات في الحصار المفروض على العراق، فان رصيد اميركا من حرب الكويت يبدأ بالتناثر والتفتت.

لقد اصبح الكلام عن انحياز واشنطن لاسرائيل ممجوجاً لبداهته. كما امسى المتحدث عن افراط اميركا في معاقبة العراق بلا معنى لتكراره المل. ليست المسألة اذن في انحياز الدبلوماسية الاميركية، انها باتت تدور حول فعاليتها، وهذا امر آخر، ادهى وأدق، له وقع كبير في الساحة الداخلية الاميركية. كيف لا وقد فشلت ثلاث جولات لنديس روس في تحريك الملف الاسرائيلي - الفلسطيني؟ كيف لا وقد فشل كريستوفر قبله في التوصل الى اتفاق سوري - اسرائيلي؟ كيف لا وقد فشلت واشنطن في اعادة شمعون بيريس رئيساً لحكومة اسرائيل؟ كيف لا وقد فشلت واشنطن في منع الرياض من مقاطعة قمة الدوحة؟ كيف لا وقد فشلت واشنطن في وقف بعض مبادرات الانفتاح العربية على بغداد؟ بكلام اوضح: هل تستطيع الولايات المتحدة ان تتحمل غياب دول عربية مهمة عن قمة الدوحة بعد شهرين والتكاثم الشمل العربي والاسلامي من السعودية لليبيا ومن سوريا للعراق في قمة طهران الاسلامية بعد ثلاثة أشهر؟ لو تشاء الظروف وتتقابل في الازمان هاتان الصورتان المتناقضتان للدوحة في تشرين ولطهران في كانون، لكان ابناء المنطقة فهموا ان خلاا عميقاً قد طرأ على الدبلوماسية الاميركية في الشرق الاوسط، تلك الدبلوماسية التي كانت خارقة النجاح حتى الامس القريب، حرباً على العراق في الخليج وسلاماً متنامياً في المشرق. ولو تقابلت الصورتان فعلاً في المقبل من الزمن، لاستخلص الاميركان ايضاً ان الدولة الاقوى والاغنى في العالم بلا منازع، باتت عاجزة عن تحسين نفوذها في الشرق الاوسط، وفاشلة في تحديد مصطلحتها القومية وفي الدفاع عنها.